**المحاضرة الرابعة**

**- مدارس الأدب المقارن: المدرسة السلافيّة**

ظهر "المنهج السلافي (الروسي)" أو "الأوروبي الشرقي" أو "الماركسي" في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد تأخر ظهوره لأنّه كان محتقرا، حيث عُدّ من العلوم البرجوازية التي يجب ألا تمارس في دول اشتراكية. وبعد أن أزيل الستار بين أوروبا الشرقية والعالم ظهر مقارنون من تلك الدول، فنهضت مقارناتهم على دعائم المادية الدياكتيكية والمادية التاريخية. لهذا فضل بعض الباحثين اسم "المدرسة الماركسية" أو "المادية الجدلية" على اسم "المدرسة السلافية" أو "المنهج السلافي"[[1]](#footnote-2)1.

 ترفض المدرسة السلافيّة إذن الفلسفة الوضعيّة وتتبنى الفلسفة الماركسيّة، لأنّها ولدت من رحمها «فمن المعروف أن الفلسفة الماركسية باعتبارها فلسفة مادية ديالكتيكية تاريخية، قد انتقدت الفلسفة الوضعية ورفضتها بشدّة، وعدتها اتجاها فلسفيا بورجوازيا. ولا عجب في ذلك، فالماركسية هي وريثة فلسفة هيجل الجدليّة، وهي فلسفة تملك نظرة شمولية إلى الكون والمجتمع والثقافة والأدب، وهي ترى أن التطور التاريخي ليس عشوائيا بل هناك قوانين وقواعد تتحكم فيه وتوجهه، وعلى رأس تلك القوانين قانون الصراع الطبقي...»[[2]](#footnote-3)2.

و«ينطلق هذا المنهج من "الموضوعة الماركسية" التي ترى أن الأدب جزء من "البناء الفوقي" للمجتمع، وهو بناء إيديولوجي يقف إزاءه "بناء تحتي" (اقتصادي، اجتماعي) تربط بينهما صلّة تأثير، وهي ترى أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي هو الذي يتحكم في الإنتاج الأدبي ويحدّد أشكاله ومضامينه، فإن كان هناك مجتمعين متقاربين في التطور، فإن هناك تشابه بينهما حتى وإن لم تقم بينهما علاقة تأثر وتأثير، ومن ثم يجب البحث عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي عند كلّ منهما...»[[3]](#footnote-4)3. فهي تؤمن بأن هناك علاقة جدليّة بين الظواهر الأدبيّة وبين البنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة للمجتمع، أي بين البناء الفوقي الذي تشكله الثقافة والأدب، وبين البناء التحتي الذي يمثّله المجتمع (الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ)، وفي نظرتها إلى العلاقة بينهما، فإنّها ترجح البناء التحتي، إذ ترى فيه الطرف الرئيسي في المعادلة، فهو الذي يتحكم في البناء الفوقي أي في الثقافة والأدب ويحدّد مسارهما.

لذلك نجد أن «الأدب من وجهة نظر ماركسية، جزء من البناء الفوقي للمجتمع، يواكبه ويتطور بتطوره، ولذا فإن دراسة الأدب لا يجوز أن تتم بمعزل عن دراسة المجتمع والتطورات الفنية والفكرية التي تظهر في الأدب، لا يجوز أن تدرس بمعزل عن دراسة التطورات الاجتماعية. فالتطور الأدبي لا يتم بفعل العوامل الأدبية الداخلية وحدها، بل وبفعل تفاعل الأدب مع المجتمع وتعبيره عما يجري فيه من تطورات. إن تفسير الظواهر الأدبية الهامة، كنشوء وتطور الأجناس والتيارات الأدبية لا يكون بإرجاعها إلى أسباب أدبية داخلية فحسب، بل بربطها بالمسببات الاجتماعية التي أحاطت بنشوئها وتطورها»[[4]](#footnote-5)1. أي أن دراسة الأدب تحتاج إلى دراسة العوامل الداخليّة (الجماليّة) والعوامل الخارجيّة (الاقتصاديّة والاجتماعيّة) معا.

ومن رواد المدرسة السلافيّة نجد "ديونيز دوريزين" و"هنريك ماركيفيتش" و"الكسندر ديما" و"روبرت فايمن" و"فيكتور جيرومتسكي"[[5]](#footnote-6)2 الروسي الذي يعد أبرز ممثلي هذه المدرسة، وقد أجرى في الثلاثينيات والأربعينيات دراساته المقارنة حول "الملاحم البطولية الشّعبية"، ولم ينح في أبحاثه منحى دراسات التأثير والتأثر الفرنسية، بل نحى منحى آخر ينسجم مع جوهر الفلسفة الماركسية التي استوحى منها "نظرية التشابه النمطي" أو "التيبولوجي" التي تُرجع أوجه التشابه إلى مستويات تطور المجتمعات، فالمجتمعات التي بلغت بناها الاجتماعية مستويات متشابهة من التطور تتشابه أيضا في بناها الأدبيّة، أما المجتمعات التي تتفاوت درجات تطورها، فإن بناها الأدبيّة تتفاوت أيضا[[6]](#footnote-7)3. فهو يرى أن التشابهات الأدبيّة مرتبطة بالبنيّة الاجتماعيّة المتشابهة...

وعندما التقى الثلاثة "ف. ناركيريير" و"أو. تروستشكو" و"ن. ي. بالاشوف" أثناء إلقاء مداخلاتهم في المؤتمر الخامس للجمعية العالمية للأدب المقارن، دعوا إلى ضرورة ربط المقارنة الأدبية بالمكوّن الاجتماعيّ لهذا الأدب[[7]](#footnote-8)4. بهذا أصبح الأدب مرتبطا بعلم الاجتماع (السوسيولوجيا).

وقد اقترح "الكسندر ديما" تقسيما عاما للدرس إلى ثلاثة ميادين متميّزة[[8]](#footnote-9)1:

**أ**- العلاقات المباشرة بين الآداب، ذات المناخ الوطني، بعناصرها المحدّدة، ومشاكل التأثيرات والمصادر؛

**ب**- دراسة الموازنات خارج العلاقات والتأثيرات والمصادر؛

**ج**- دراسة الطوابع الخاصة لمختلف الآداب، كموضوع للمقارنة.

وتهتم المدرسة السلافية «بتلقي وإرسال مضمون الرسالة في شتى جوانبها الجمالية والنقدية والنظرية الأدبية العامة»[[9]](#footnote-10)2 فهي إذن تهتم بجمالية الأدب وبالنقد الأدبي. وقد صرح «أ. دوميزيل E. Dumezil في مقاله الفلسفي حول مبدأ النظم وأشكاله قائلا: قبل البحث عن المؤثرات الأدبية التي نما في ظلها خيال شعب معين، وعن الدور الذي ساهم به هو الآخر في تطوير أمم أجنبية، نشعر بضرورة البحث في الدور الذي قام به النظم في التاريخ المقارن للآداب»[[10]](#footnote-11)3، أي الدعوة إلى البحث عن النظم في الأدب المقارن قبل البحث عن المؤثرات.

ولا تتخلى «المدرسة السلافية عن التشديد على الخصوصية الوطنية في حديثها عن الدرس المقارن، لأن أهمية هذا الدرس تتحدّد في تقدير نزعة الأدب الذي يستهدف الكشف عن جوهر الفن كظاهرة»[[11]](#footnote-12)4.

ومن **خصائص المدرسة السلافيّة** نجد[[12]](#footnote-13)5:

**أ**- أثر السياسي في الأدب المقارن؛

**ب**- النزعة إلى الآداب الوطنية وخصوصياتها كالمنهج الفرنسيّ؛

**ج**- الاعتقاد بالمادية الجدليّة التاريخيّة؛

**د**- النزعة الإنسانية نحو الحقيقي في الإنسان؛

**ه**- النزوع إلى رسم معالم اجتماع الأدب المقارن؛

**و**- نزوعه "النقدي" العام جعله في موقع وسط بين "جماليّة" المنهج الأمريكيّ و"تاريخيّة" المنهج الفرنسيّ.

تهتم المدرسة السلافيّة إذن بالتاريخ كالمدرسة الفرنسيّة، إلا أن أهداف ونتائج كلّ منهما مختلفة، فإذا كانت المدرسة الفرنسيّة التقليديّة تستعين بالمنهج التاريخي لإثبات ثنائية التأثر والتأثير، فإن المدرسة السلافيّة أو الروسيّة تستعين به لإثبات دور المجتمع والصراع الطبقي في تشكيل الأدب بمختلف أجناسه...

و«تموضع المدرسة السلافية بين التاريخيّة والنقديّة وتبنيها لتداخل الاختصاصات يجعلها تنفتح أكثر فأكثر على مستجدات الحياة العقلية، ونكاد نجزم بأن هاته المدرسة تحقق ما لم تستطع المدرستان: الأمريكية والفرنسية إنجازه، كلّ منهما على حدة، وتحقق بداية المشروع الكبير والذي يجمع بين معالجتي المدرستين السابقتين، دون أن تتخلى عن نقد أوجه الضعف في المدرستين»[[13]](#footnote-14)1. فالمدرسة السلافيّة إذن تجمع بين المدرستين: المدرسة التاريخيّة الفرنسيّة، والمدرسة النقديّة الأمريكيّة.

**6- مدارس الأدب المقارن: المدرسة العربيّة**

تأخر اهتمام العرب بالدّراسات الأدبيّة المقارنة، لذلك يرى بعض الباحثين أن العرب لم يتمكنوا من تأسيس مدرسة عربيّة مستقلة عن المدارس الأدبيّة المقارنة السابقة. يقول الباحثان يوسف بكار وخليل الشيخ إن «العرب لم يتمكنوا –كغيرهم- من أن يكونّوا لهم منهجا مقارنا/ أو مدرسة مقارنية من ثقافات المؤسسين فيها، تصدر عن مقومات "ايديولوجية" مستقلة بذاتها كغيرها من المناهج (أو المدارس) السالفة»[[14]](#footnote-15)1 فالعرب –حسب رأيّهما- لم يتمكنوا من تأسيس مدرسة عربيّة مستقلة كبقية المدارس، لذلك يفضلان تسميتها ﺑ "منظور عربيّ للمقارنة"[[15]](#footnote-16)2 وليس مدرسة أو منهج.

يقول سعيد علوش أنه «ينبغي تحفظنا على استعمال تسمية المدرسة العربيّة، من كون هاته المدرسة، لم تستطع الاستقلال بذاتيتها نهائيا. بل يستغرقها هم الترويج والدعاية للدرس، كما لو كان درسا غربيا تجب الدعوة إلى تبنيه عربيا، قبل ارتباطه باللّون القومي العربي»[[16]](#footnote-17)3. لم تستطع المدرسة العربيّة إذن الانفصال عن المدارس السابقة – المدرسة الفرنسيّة والمدرسة الأمريكيّة- وذلك راجع إلى الأسباب التاليّة[[17]](#footnote-18)4:

**أ**- جدّة هذا اللّون من الأدب على العرب؛

**ب**- الانبهار بتاريخية المنهج الفرنسي خاصة والآداب الغربية عامة؛

**ج**-عدم التواصل – في الأغلب- بين المقارنين العرب أو تجاهلهم لبعضهم؛

**د**- طبيعة الجامعات العربية وحال الدرس الأدبي فيها؛

**ه**- بعض الإشكالات الثقافيّة والاجتماعيّة.

و«لما كانت غالبية الدراسات المقارنة العربية تحديدا تستلهم وتهتدي بالمدرسة الفرنسيّة، فإن أهمية الصلات التاريخيّة ما بين الآداب القومية تبقى مهمة في الأدب والدّراسة الأدبيّة عموما»[[18]](#footnote-19)1 فالمدرسة العربيّة تقتدي بالمدرسة الفرنسيّة، لذلك نجدها تبحث عن الصلات التاريخيّة بين الآداب القوميّة كالمدرسة الفرنسيّة التاريخيّة.

وقد حاول الدارسون تتبع مسيرة الدّراسات الأدبيّة المقارنة العربيّة، فقسموها إلى أربعة مراحل:

**1- مرحلة البدايات**: وهي عبارة عن محاولات حول دراسة الأدب المقارن، تدل على اهتمام العرب بهذا الفرع الجديد، رغم أنها لم تقم على أساس علميّ منهجيّ إلا أن لها قيمة في إبراز الدّراسات المقارنة العربيّة، لأنّها هي التي لفتت أنظار الدارسين إلى هذا المجال الجديد. ويمثّل هذه المرحلة "رفاعة الطهطاوي" الذي سافر مع البعثات الطلابيّة إلى فرنسا كواعظ ديني، فألف بعد اطلاعه على الحضارة الغربية كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" وهو عبارة عن مقارنة شكليّة سطحية بين الثقافة الشرقيّة والغربيّة. كما نجد أيضا "سليمان البستاني" الذي ترجم إلياذة هوميروس شعرا من اليونانيّة إلى العربيّة، وفيها تتبع فن الملاحم في الآداب العالمية، وقارن بين الصوّر الشّعريّة في الإلياذة وما يماثّلها في الشّعر العربيّ[[19]](#footnote-20)2.

ونجد أيضا "روحي الخالدي" في كتابه "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هيجو" وفيه تناول تأثر شعراء التروبادور بالشّعر العربي في الأندلس، وقصص الحيوان بين الأدب العربي والآداب الشّرقية الغربية. أما "قسطاكي الحمصي" في كتابه "المنهل الوارد في علم الانتقاد" فقد وازن فيه بين "الكوميديا الإلهية" أو "الألعوبة الإلهية" كما يسميها لدانتي و"رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري. كما نشر "فخري أبو سعود" مقالاته في مجلة الرسالة تتحدث عن الظواهر المتماثلة في الأدبين العربي والانجليزي[[20]](#footnote-21)3. كما نجد أيضا إلى جانب هؤلاء "أديب اسحاق" و"أحمد فارس الشدياق" و"أمين الريحاني" "وعلي مبارك" و"أحمد ضيف"...[[21]](#footnote-22)4

**2- مرحلة التأسيس (1948 – 1960)**: وقد برز في هذه المرحلة بعض المقارنين ساهموا بتأليف يحمل اسم الدرس المقارن. فقد ظهر كتابين في سنة واحدة 1948 وهما: كتاب "نجيب العقيقي" وكتاب "عبد الرزاق حميدة"، وفي سنة 1951 ظهر كتاب "إبراهيم سلامة" بعنوان "دراسات في الأدب المقارن"[[22]](#footnote-23)1.

ويمكن لنا «التأريخ للبداية الحقيقية للدراسات الأدبية العلمية المقارنة في اللغة العربية بأوائل الخمسينات عقب عودة الدكتور "محمد غنيمي هلال" رائد الدّراسات الأدبيّة المقارنة في العربيّة من بعثته إلى فرنسا لدراسة الأدب المقارن بعد حصوله على درجة الدكتوراه في هذا المجال، وقيامه فور عودته بتدريس مادة الأدب المقارن لطلاب كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكلية الآداب بجامعة عين شمس، ثم إصدار الطبعة الأولى لكتابه الرائد "الأدب المقارن"... الذي يحدّد فيه بدقّة الأسس العلميّة لنظرية الأدب المقارن كما تبلورت هذه الأسس على يد المدرسة الفرنسية التي تتلمذ الدكتور غنيمي هلال على واحد من كبار أعلامها وهو الأستاذ جان ماري كاريه»[[23]](#footnote-24) يعد محمد غنيمي هلال –إذن- الرائد المنهجيّ للأدب المقارن، وقد كان من أتباع المدرسة الفرنسيّة التاريخيّة.

**3- مرحلة الترويج (1960 – 1970)**: ظهرت في هذه المرحلة مجلتان متخصصتان في الأدب المقارن، ظهرت المجلة الأولى في لبنان من 1966 إلى 1967 بعنوان "الدّراسات الأدبية" بإشراف "محمد محمدي" وكانت تصدر باللّغتين العربيّة والفارسيّة، مقتدية بالمنهج الفرنسيّ. أما المجلة الثانية فهي بعنوان "الدفاتر الجزائريّة للأدب المقارن" من 1967 إلى 1968 باللّغة الفرنسيّة، يديرها "جمال الدين بن الشيخ" المقيم في فرنسا. كما ظهر في هذه المرحلة كتاب "محمد عبد المنعم خفاجة" وكتاب "حسن جاد حسن"، ولكلّ منهما كتاب عنوانه "الأدب المقارن"[[24]](#footnote-25).

**4- مرحلة عقد الرشد (1970 إلى الآن)**: وهي أخصب المراحل جميعا، وتتسم ﺑ[[25]](#footnote-26):

**أ**- الالتفات الأعمق والأوسع إلى المنهج الأمريكي في الأدب المقارن، والتبشير النظري بمبادئه؛

**ب**- زيادة الاهتمام بالدّراسات المقارنة بين العربيّة والفارسيّة والتأليف فيها، أمثال: "حسين علي محفوظ" و"محمد التونجي"، و"طه ندا"، و"بديع جمعة"...

**ج**- ازدياد التوجه نحو الدّراسات العربيّة الغربيّة، مثل دراسات "ريمون طحان" و"حسام الخطيب" و"سعيد علوش" و"أحمد درويش" و"الطاهر أحمد مكي"...

التفت الدارسون – إذن- في هذه المرحلة إلى المدرسة الأمريكيّة، ومنهم "محمد عبد السلام كفافي"، الذي لم يقتصر على اعتماد ميراث المدرسة الفرنسيّة وحدها، بل وعيه وتبنيه لميراث المدرسة الأمريكيّة[[26]](#footnote-27)1 التي تهتم بعلاقة الأدب بمختلف الفنون والعلوم.

تطور الأدب المقارن على هذا الأساس، ومن أبرز تطوراته «تأسيس الرابطة العربية للأدب المقارن، عام 1983 ومقرها مدينة "عنابة" الجزائرية، وقد عقدت ثلاثة مؤتمرات: الأول بعنابة عام 1984، والثاني بدمشق عام 1986، والأخير بمراكش عام 1989. ولم تبخل بعض المجلات العربية في إصدار أعداد خاصة بالأدب المقارن، وهي "فصول" المصرية، و"عالم الفكر" الكويتية، و"المعرفة" و"الموقف الأدبي"...»[[27]](#footnote-28)2.

وعموما اتبعت المدرسة العربيّة في الأوّل مبادئ وأسس المدرسة الفرنسيّة، وفي مرحلة عقد الرشد التفتت إلى المدرسة الأمريكيّة... لكن معظم المقارنين العرب لم يستطيعوا تجاوز مبادئ المدرسة الفرنسيّة[[28]](#footnote-29)3 المتمثّلة في التركيز على الصلات التاريخيّة، وعلى ثنائية التأثير والتأثر.

1. 1- ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص86. [↑](#footnote-ref-2)
2. 2- عبده عبّود: الأدب المقارن – مشكلات وآفاق، ص 38. [↑](#footnote-ref-3)
3. 3 - يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص. ن. [↑](#footnote-ref-4)
4. 1 - عبده عبّود: الأدب المقارن – مشكلات وآفاق، ص 38 – 39. [↑](#footnote-ref-5)
5. 2 – ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 86. [↑](#footnote-ref-6)
6. 3- ينظر: عبده عبّود: م.س، 42 – 43. [↑](#footnote-ref-7)
7. 4 – ينظر: سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص132. [↑](#footnote-ref-8)
8. 1- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص 133. [↑](#footnote-ref-9)
9. 2 – م. ن، ص132. [↑](#footnote-ref-10)
10. 3- بير برونيل وأ. م روسو وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 236. [↑](#footnote-ref-11)
11. 4- سعيد علوش: م. س، ص134. [↑](#footnote-ref-12)
12. 5 - يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص87. [↑](#footnote-ref-13)
13. 1 - سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص139. [↑](#footnote-ref-14)
14. 1- يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 89. [↑](#footnote-ref-15)
15. 2- ينظر: م. ن، ص. ن. [↑](#footnote-ref-16)
16. 3- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص 159. [↑](#footnote-ref-17)
17. 4- يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص . ن. [↑](#footnote-ref-18)
18. 1- نجم عبد الله كاظم: في الأدب المقارن – مقدمات للتطبيق، ص 10. [↑](#footnote-ref-19)
19. 2 – ينظر: - على عشرى زايد: الدراسات الأدبية المقارنة في العالم العربي، ص 14 – 20.

 - يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص21. [↑](#footnote-ref-20)
20. 3- ينظر: علي عشرى زايد: م. س، ص 09 – 26. [↑](#footnote-ref-21)
21. 4– ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص 89. [↑](#footnote-ref-22)
22. 1- ينظر: سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص201– 207. [↑](#footnote-ref-23)
23. - على عشرى زايد: الدراسات الأدبية المقارنة في العالم العربي، ص 05 – 46. [↑](#footnote-ref-24)
24. - ينظر: - يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 91 – 92.

 - سعيد علوش: م. س، ص 225. [↑](#footnote-ref-25)
25. - ينظر: يوسف بكار وخليل الشيخ: م. س، ص 92. [↑](#footnote-ref-26)
26. 1 – ينظر: سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ص 250 . [↑](#footnote-ref-27)
27. 2- يوسف بكار وخليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 92 – 93. [↑](#footnote-ref-28)
28. 3 – ينظر: سعيد علوش: م. س، ص 166 – 167. [↑](#footnote-ref-29)